المبحث الثاني

أنماط المقطعات الشعرية

اتخذت المقطعات الشعرية في الأدب الأندلسي أشكالا مختلفة من حيث بناؤها، ومناسبة إلقائها، والأساليب الشعرية التي كانت تنظم على وفقها فلقد اتخذت أنماطا اشتهرت بها، أهمها نمط البديهة والارتجال، الذي شكل النسبة العظمى من بين الأنماط الأخرى، كالمراجعات والمجاوبات والمعارضات، وأن هذه الأنماط تدلل على قدرة الشاعر الأندلسي على إقحام الأنماط الشعرية بمقطعات تغلب عليها البساطة والوضوح، فجاء عمله رصينا جميلا رائعا، وسنتحدث على أهم هذه الأنماط التي سلكها الشاعر في بناء مقطعاته الشعرية.

أ. البديهة والارتجال:

هو نمط من الأنماط الرئيسة التي سارت عليها المقطعات الشعرية في الأدب الأندلسي، وتعد من الظواهر الأدبية التي شاعت في الأندلس، وأعجب بها الشعراء الأندلسيون، لأنها نوع من النظم الفجائي الذي يدل على تيقظ خاطر الشاعر وسرعة تهيئته للشعر في ذهنه[1]، إلا أنها وبالرغم من اقتراب معناها، إلا أن اشتقاقها اللغوي يكاد أن يضع حدودا لكل منهما، فنرى جمال الدين ابن منظور يعرف البداهة ويقول: ((أول كل شيء وما يفجأ منه))[2]، وأضاف صاحب العمدة معنى الفكرة والتأييد إلى معنى البدء[3].

ويتميز الشاعر الناظم للبديهة بالخاطر السريع والإلهام، مما يدل على أنها، أي البديهة، لا تقال في كل وقت وحين، إنما يلهمها الله للشاعر[4].

ومن الطريف أن نذكر هنا قصة وقعت لابن عبد ربّه مع الكاتب أبي حفص ابن قلهيل في السمع إلى جاريته مصابيح، تبين لنا سرعة الخاطرة عند الشاعر، عندما مرّ ابن عبد ربّه بدار أبي حفص عشية، فسمع من طيب الغناء ما استوقفه، فأراد الدنو من الباب،

---

(1) ينظر: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: أحمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968: 180/6، كما ينظر: النفح: 142/3-265.

(2) لسان العرب: 475/13 (مادة بده).

(3) ينظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه: أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط4، 1972: 189/1-190.

(4) ينظر: النفح: 534/2.

وقيل أنه صُبَّ عليه من العلية ماءٌ بلَّ ثيابه، فعدل إلى مسجد بقرب الدار، وأخذ دواة وبياضا، فكتب إلى ابن قلهيل رقعة فيها: ((بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ، طاولتك النعم، وطالت بك، إنا لمسنا سماء لهوك ﴿**فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً**﴾))[1]، وفي ذلك أقول[2]:

يَا مَنْ يَضِنُّ بِصَوْتِ الطَّائِرِ الغَرِدِ ... مَا كُنْتُ أَحْسَبُ هَذَا الضَّنَّ مِنْ أَحَدِ

لَوْ أَنَّ أَسْمَاعَ أَهْلِ الأَرْضِ قَاطِبَةً ... أَصْغَتْ إِلَى الصَّوْتِ لَمْ يَنْقُصْ وَلَمْ يَزِدِ

لَوْلا اتْقَائِيْ شِهَاباً مِنْكَ يُحْرِقُنِي ... بِنَارِهِ لاسْتَرَقْتُ السَّمْعَ مِنْ بُعُدِ

لَوْ كَانَ زِرْيَابُ حَيَّاً ثُمَّ أُسْمِعَهُ ... لَمَاتَ مِنْ حَسَدٍ أَوْ ذَابَ مِنْ كَمَدِ

فَلا تَضُنَّ عَلَى أُذُنِيَّ تُقْرِضُهَا ... صَوْتَاً يَجُوْلُ مَجَالَ الرُّوْحِ فِي الجَسَدِ

أَمَّا الشَّرَابُ فَإِتِّيْ لَسْتُ أَقْرَبُهُ ... وَلَسْتُ آتِيْكَ إلا كِسْرَتِي بِيَدِي

فلما قرأها وعرف موضعه جاءه حافياً وسأله الحضور، ففعل.

والبديهة مقياس تقاس به مقدرة الشاعر من جهة وما يتهم به من سرقة من جهة أخرى، كما يرى ابن شهيد من أن ((السرقة لا يفضحها إلا القول على البديهة))[3].

وقد امتحن المنصور بن أبي عامر في مجلسه صاعد البغدادي (ت 417هـ)، عندما اتهم بالسرقة فوضع أمامه منظراً وطلب منه وصفه على البديهة، فوصفه وأبطل كل ما قيل عنه من اتهام في مقطعته التي مطلعها[4]:

أَبَا عَامِرٍ غَيْرُ جَدْواكَ وَاكِفُ ... وَهَلْ غَيْرُ مَنْ عَاداكَ فِي الأَرْضِ خَائِفُ

فأعجب به المنصور وكتب هذه المقطعة على يده، إلا أنه أغفل من هذا المنظر مشهدا في زاوية يحتوي على سفينة فيها جارية من النّوار تجذف بمجاذيف لم يرها صاعد، فقال له المنصور: أحسنت إلا أنك أغفلت ذكر المركب والجارية، فقال للوقت بديهة[1]:

---

(1) سورة الجن:8-9.

(2) ديوان ابن عبد ربه: 51.

(3) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ابن بسام الشنتريني، تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1399هـ-1979: ق1م1/ 209.

(4) نفح الطيب: 80/3.

وَأَعْجَبُ مِنْهَا غَادَةً فِيْ سَفِينَةٍ مُكَلَّلَةٌ تَصْبُو إِلَيهَا المَهَاتِفُ
إِذَا رَاعَهَا مَوْجٌ مِنَ المَاءِ تَتَّقِي بِسُكَّانِها مَا أَنْذَرَتْهُ العَوَاصِفُ
مَتَى كَانَت الحَسْنَاءُ رُبَّانَ مَرْكَبٍ يُصَرِّفُ فِي يُمْنَى يَدَيْهِ المَجَاذِفُ
وَلَمْ تَرَ عَيْنِي فِي البِلادِ حَدِيْقَةً تَنَقَّلُهَا فِي الرَّاحَتَيْنِ الوَصَائِفُ
وَلا غُرْوَ أنْ شَاقَتْ مَعَالِيْكَ رَوْضَةٌ وَشَتْهَا أَزَاهِيْرُ الرُّبَى والزَّقَارِفُ
فأَنْتِ امْرُؤٌ لَوْ رُمْتِ نَقْلَ مُتَالِعٍ وَرُضْوَى ذَرَتْهَا فِي سطاك نَوَاسِفُ
إِذَا قُلْتَ قَوْلاً أو بَدَهت بَدِيْهَةً فَكِلْنِي لَهُ إنّي لِمَجْدِكَ وَاصِفُ

وكانت مجالس الخلفاء والملوك حافلة بهذا اللون من النظم البديهي السريع، فكانت تصيب في التعبير عن المعنى فتنال الاستحسان، ويأخذ شاعرها الجوائز السنية عنها، فعندما بُشّر الخليفة الحكم المستنصر باشتمال صبح جاريته على حمل كان المصحفي حاضراً عنده، فأنشده على البديهة مقطعته التي مطلعها[2]:

هَنِيْئَاً لِلأَنَامِ وللإمَامِ كَرِيْمٌ يَسْتَفِيْدُ عَلَى الكِرَامِ

مما نال رضا الخليفة واستحسانه لهذه المقطوعة وإكرامه عليها.

ويبدو أنّ البديهة كانت مناسبة للرثاء، كما أنها كانت مناسبة للوصف والمديح والهجاء، فما سمع ابن حناط الناعي وهو ينعى ابن عامر حتى قال على البديهة[3]:

لَمَّا نَعَى النَّاعي أَبَا عَامِرٍ أَيْقَنْتُ أَنِّيْ لَسْتُ بِالصَّابِرِ
أَوْدَى فَتَى الظُّرْفِ وَتُرْبَ النَّدَى وَسَيِّدَ الأَوَّلِ والآخِرِ

(1) نفح الطيب: 81/3.
(2) ما تبقى من شعر الحاجب المصحفي: 97.
(3) بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس: أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي، طبعة مدريد، 1988: 107/1.

وكانت مناسبة للفخر، فترى عبد الملك بن حبيب أنه دخل مجلساً لأحد الأكابر فازدراه من رآه، فقال على البديهة مفتخراً بنفسه[1]:

لا تَنْظُـــرَنَّ إِلَـــى جِسْـــمِي وَقِلَّتِـــهِ وَانْظُرْ لِصَدْرِي وَمَا يَحْوِي مِنَ السَّنَنِ

فَـرُبَّ ذِي مَنْظَـرٍ مِـنْ غَيْـرِ مَعْرِفَـةٍ وَرُبَّ مَـنْ تَزْدَرِيْـهِ العَـيْنُ ذُوْ فِطَـنِ

وَرُبَّ لُؤْلُـــؤَةٍ فِـــيْ عَـــيْنِ مَزْبَلَـــةٍ لَـمْ يُلْـقَ بَـالٌ لَهَـا إلا عَلَـى زَمَـنِ

والملاحظ أن لجمال الطبيعة الأندلسية أثر كبير في نمو وتطور البديهة الشعرية من دقة وصف، ورقة خاطر، إذ تتجلى من خلال تلك المقطعات موهبة الشاعر وقدرته في النظم على هذا المنوال[2].

ومن أنواع البديهة إجازة الشعر التي عرفها ابن ظافر الأزدي بأنها: ((أن ينظم الشاعر على شعر غيره في معناه، ما يكون به تمامه وكماله))[3]، هذا وقد كانت الاستجازة من المستجيز والإجازة من المجيز بمثابة السؤال والجواب، الذي يقصد منه الحكم على ما يتمتع به المسؤول من قدرة على التعبير، وما يجول في خاطره من تفكير.

وغالبا ما تكون الإجازة في مجالس الخلفاء والأمراء، وقد تكون بدوافع مختلفة، فقد كان الخليفة الناصر مثلا يتسلى بالإجازة الشعرية، فعندما أراد أن يهجو أحد وزرائه فطلب ذات مرة من القاسم بن لب أحد شعرائه أن يهجو الوزير عبد الملك بن جهور، فقال: أخافه، فقال لعبد الملك: اهجه أنت، فقال: أخاف على عرضي منه، فقال: نهجوه أنا وأنت، ثم صنع[4]:

لُـــبٌّ أَبُـــو القَاسِـــمِ ذو لِحيَـــةٍ طَوِيلَـــــةٌ أَزْرَى بِهَـــــا الطُّـــــوْلُ

فقال عبد الملك:

وعُرْضُـــــهَا مِـــــيْلانِ إنْ كُسِـــــرَتْ وَالعَقْـــــلُ مَـــــأفُونٌ وَمَخْبُـــــولُ

---

(1) مطمح الأنفس ومسرح التأنس: الفتح بن خاقان، دراسة وتحقيق محمد علي شوابكة، مؤسسة الرسالة، ط1، 1403هـ-1983: 277.

(2) ينظر: الحلة السيراء: 127/1، م.ن: 468/1، 473، 475.

(3) بدائع البدائه: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، 1970: 61.

(4) نفح الطيب: 617/3-618.

فقال الناصر للب: اهجه فقد هجاك، فقال:

فقـــال: أَمِـــيْنَ اللهِ فِـــي عَصْـــرِنَا ... لِـــيْ لِحْيَـــةٌ أَزْرَى بِهَـــا الطُّـــوْلُ

وَابْـــنُ جَهْيْـــرٍ قَـــالَ قَـــوْلَ الّـــذِي ... مَأْكُوْلُـــــهُ القرضْـــــيلُ والفُـــــوْلُ

لَـــوْلا حَيَـــائي مِـــنْ إمَـــامِ الهُـــدَى ... نَخَسْـــــتُ بِـــــالمَنْخَسِ شـــــو.....

ثم سكت، فقال له الناصر: هات تمام البيت، فامتنع، فقال له (قولوا) يعني تمام البيت، فأعجب الناصر لدين الله وأمر له بجائزة.

أما المعتمد بن عبّاد فكان يستجيز الشعراء اختبارا، فإذا ما نجحوا بالاختبار حصلوا على جوائز سنية، وقربهم من البلاط، حتى أنه ذات مرة عندما اختبر جماعة من الشعراء في نزهة نهرية له، طالبا منهم إجازة شطر فعجزوا، فأجازته على البديهة جارية، فأعجب بها المعتمد، واشتراها من صاحبها وتزوجها، وتلك هي اعتماد الرميكية التي أنجبت لهذا الأمير ملوكا حكموا الأندلس[1].

وقد تكون الاستجازة على مستوى الشعراء أنفسهم، تباهيا بمواهبهم الفذة، فعندما قال ابن خياط: (مَرَضُ الجُفُوْنِ وَلَثْغَةٌ فِيْ المَنْطِقِ) معرضا بابن شهيد في مجلس ضم ابن برد وأبا بكر المرواني والطبني، وقد حاول هؤلاء الشعراء أن يجيزوه، فقال لهم ابن شهيد لستم المقصودين، وأخذ القلم وكتب بديهة[2]:

مَـرَضُ الجُفُـوْنِ وَلَثْغَـةٌ فِـيْ المَنْطِـقِ ... سَـيَّانَ جَـرا عِشْـقَ مِـنْ لَـمْ يَعْشَـقِ

مَـــنْ لِـــي بِـــأَلْثَغَ لا يَـــزَالُ حَدِيْثُـــهُ ... يُـــذْكِي عَلَـــى الأَكْبَـــادِ جَمْـــرَةَ مُحْـــرِقِ

يُنْبِـــي فَيَنْبُـــو فِـــي الكَـــلامِ لِسَـــانُهُ ... فَكَأَنَّـــهُ مِـــنْ خَمْـــر عَيْنَيْـــهِ سُـــقِي

لا يُـــنْعِشُ الأَلْفَـــاظَ مِـــنْ عَثَرَاتِهَـــا ... وَلَـــو أَنَّهـــا كُتِبَـــتْ لَـــهُ فَـــي مَهْـــرَقِ

(1) ينظر: تاريخ الفكر الأندلسي: أنخل بالنثيا، ترجمة د. حسين مؤنس، مطبعة النهضة، القاهرة، ط2، 1956: 95.
(2) الذخيرة: ق1م1/ 261، ينظر: ديوان ابن شهيد: 117.

وغالبا ما تكون الاستجازة في مجالس الغناء، إذ يغني بشعر المشارقة ويطلب بعدها إجازة البيت، فعندما غنى أبو الحسن زرياب يوما بين يدي الأمير عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل بهذين البيتين وهما للعباس بن الأحنف[1]:

قَالَتْ ظَلُومُ سَمِيَّةُ الظُّلْمِ مَا لِي رَأَيْتُكَ نَاحِلَ الجِسْمِ

يَا مَنْ رَأَى قَلْبِي فَأَقْصَدَهُ أَنْتَ الخَبِيرُ بِمَوْضِعِ السَّهْمِ

فقال عبد الرحمن هذان البيتان منقطعان، فلو كان بينهما ما يصلحهما لكان أبدع، فصنع عبد الله بن فرناس بديها:

فَأَجَبْتُهَا وَالدَّمْعُ مُنْحَدِرٌ مِثْلُ الجُمَانِ وَهِيَ مِنَ النَّظْمِ

ولا تقتصر الإجازة في الشعر على شكل محدد، فقد تكون إجازة شطر بشطر، بل قد يكون شطراً بشطر وبيت[2]، وشطرا بشطر وبيتين[3]، وبيتا ببيت[4]، وبيتا بخمس أبيات[5]، وبيتين ببيت[6].

فالإجازة كما أنها تنوعت من حيث العدد، فإنها تنوعت أيضا من حيث الموضوعات فشملت كثيرا من أغراض الشعر المختلفة، وتنوعت من حيث منشديها، فكما أنشدت في قصور الخلافة، وتبارى فيها الشعراء، نراها أيضا تأتي على ألسنة الجواري والصبيان[7]، وهذا دليل على نبوغ الأندلسيين وقدرتهم على قول الشعر في هذا العصر.

أما الارتجال، فعلى الرغم من اتصاله بالبداهة والإجازة برباط وثيق، إلا أن حذاق النظر من النقاد قد فرقوا بين البداهة والارتجال، فجعلوا الارتجال ما كان على طريق الانهمار والتدفق، لا يتوقف فيه قائله[8].

---

(1) ديوان العباس بن الأحنف، تحقيق د. عاتكة الخزرجي، مطبعة دار الكتب المصرية، 1954م: 61.
(2) نفح الطيب: 615/3.
(3) ن.م: 610/3.
(4) ن.م: 312/3.
(5) ن.م: 446/4-447.
(6) ن.م: 332/3-324.
(7) ينظر: المعجب في تلخيص أخبار المغرب: عبد الواحد المراكشي، ط1، 1984: 87-88.
(8) ينظر: العمدة: 189/1، وينظر: الذخيرة: ق4م1/ 36.

ولكن ينبغي أن لا يغيب عن أذهاننا مدى معاناة الشعراء عندما يجيزون، فربما كانوا أكثر معاناة من هؤلاء الذين يرتجلون شعرهم ابتداء، فإن من السهل على الإنسان أن يكمل أفكاره هو، أما أن يكلف بتكميل فكرة غيره بما يلائمها فذلك أمر لا يخلو من صعوبات من ناحية الشعر، وانقياده لهم في سهولة ويسر.

ويبدو أن القدرة على ارتجال الشعر سلاح في يد الشاعر يوظفه في المكان المناسب متجاوزا به عقبة من العقبات أو كبوة من الكبوات التي يصاب بها، فنرى عندما مر القاضي محمد بن عيسى في بعض الأزقة فإذا برجل سكران يتمايل، فلما رأى القاضي هابه فأراد الانصراف وخانته رجلاه، فاستند إلى حائط وأطرق، فلما اقترب القاضي رفع رأسه ثم أنشأ يقول[1]:

أَلا أَيُّهَا القَاضِي الّذي عَمَّ عَدْلُهُ ... فَأَضْحَى بِهِ فِي العَالَمِينَ فَرِيْدَا

قَرَأتُ كِتَابَ اللهِ تِسْعِينَ مَرَّةً ... فَلَم أَرَ فِيْهِ للشَّرَابِ حُدودَا

فَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَجْلِدْ فَدُوْنَكَ مَنْكِباً ... صَبُورَاً عَلَى رَيْبِ الزَّمَانِ جَلِيْدَا

وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَعْفُو تَكُنْ لَكَ مِنَّةً ... تَرُوْحُ بِهَا فِي العَالمِينَ فَرِيْدَا

وَإِنْ أَنْتَ تَخْتَارُ الحَدِيْدَ فَإِنَّ لِي ... لِسَانَاً عَلَى هَجْوِ الزَّمَانِ حَدِيدَا

فلما سمع القاضي شعره أعرض عنه.

كما أن هذه المقدرة الفذة لشعراء الأندلس، هي التي أعادت للأندلسيين هيبتهم عندما زارهم رسول ملك الروم، وكان الحفل قائما والحضور محتشدين، وكان أبو علي القالي مهيأ لهذا الموقف لكي يقوم مقام الأديب المرحب بهذا الضيف، إلا أنه ما إن رأى هذا الحفل وهذا الموقف حتى جبن ولم تحمله رجلاه، فوثب له أبو الحكم منذر بن سعيد، وفطن له فقام مقامه، وارتجل خطبة بليغة، وأنشد لنفسه في آخرها[2]:

هَذَا المُقَامُ الّذي مَا عَابَهُ فَنَدٌ ... لَكِنَّ صَاحِبَهُ أَزْرَى بِهِ التَّلَدُ

(1) مطمح الأنفس: 265.

(2) جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس: الحميدي، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1983: 556/2.

لَـوْ كُنْـتُ فِـيْهِمْ غَرِيْبَـاً كُنْـتُ مُطَّرِفَـاً لَكِنَّنِـــي فِـــيْهِم فَاغْتَـــالَنِي النَّكَـــدُ

لَـــوْلا الخِلافَـــةُ أَبْـــقَى اللهُ بَهْجَتَهَـــا مَـا كُنْـتُ أَبْقَـى بِـأَرْضٍ مَـا بِهَـا أَحَـدُ

ولا يخفى أثر الطبيعة الأندلسية على بروز نمط الارتجال، فكانت عاملا محفزا لقريحة الشعراء، حتى أثروا الأدب الأندلسي بتلك المقطعات الشعرية، فعندما كان ابن السراج في البادية في أيام الربيع وأقام على روضة ورد وحوله مياه تطرد، وأم الحسن تغرد، قال مرتجلا هذه المقطعة[1]:

يَـــا سَـــيِّدِي وَالّـــذِيْ أَرْضَـــاهُ عَلَيْـــهِ دُوْنَ الأَنَـــامِ أَعْتَمِـــدْ

أَمَـا تَـرَى الـدَّهْرَ كَيْـفَ جَـادَ لَنَـا بِيَـــوْمِ أُنْـــسٍ سَـــاعَتُهُ جُـــدِدْ

وَرْدُ جَنَـــى وَرَوْضَـــةٌ تَرَكَـــتْ بِوَقْرِهَـــا وَالمِيَـــاهُ تُطَّـــرِدْ

فَقُـــلْ لِأُمِّ الحِسَـــانِ تَقْتُلُنِـــي وَلا عَلَيْهَـــا دَمٌ وَلا قَـــوَدْ

وَاشْـرَبْ كَشُـرْبِي عَلَـى مَحَبَّـةِ مَـنْ فِـي صَـوْتِهَا العَـذْبِ طَـائِرٌ غَـرِدْ

وكانت مجالس الشعر والأدب تقتضي أن يرتجل الشعراء ويتنافسوا ويبدعوا أيّما إبداع، وفي هذه يقول غرسيه غومس ((إن الجانب الأكبر من المقطعات الأندلسية التي حفظتها لنا كتب الأدب، إنما هي مرتجلات، صدرت عن أصحابها في لحظتها))[2].

ونرى لابن شهيد انهماره يصف فيه أحد هذه المجالس على إثر مطالبته بهذا الوصف الذي قاله ابن بسام بحقه،(وكان الذي طالبوه منه يومئذ زبدة التعنيت، ومحة بيض التبكيت، لأن المعنى الجليف إذا لم يطلب على النفس، وتناوله المحسن أساء فيه))[3]، وقال أبو عامر في ذلك المجلس مقطعته المشهورة التي مطلعها[4]:

وَفِتْيَـــةٌ كَـــالنُّجُومِ حُسْـــنَاً كُلُّهُـــمْ شَـــاعِرٌ نَبِيْـــلُ

(1) الذخيرة: ق1م2/ 875.
(2) في الشعر الأندلسي: غرسيه غومس: 93.
(3) الذخيرة: ق1م1/ 27.
(4) ديوان ابن شهيد: 123.

هذا وقد نالت البديهة والارتجال استحسان الأدباء والنقاد، كما نالت استحسان الخليفة والبلاط، فنرى الفتح بن خاقان في كتابه (قلائد العقيان)، وظافر الأزدي في (بدائع البدائه) يكثران من ذكر الشعر الملقى على البديهة والارتجال، أما حازم القرطاجني فإنه يقسم الشعراء في عملية نظم الشعر إلى شاعر مرو وشاعر مرتجل[1]، أما ابن شهيد فقد امتدح صاحب الطبع والموهبة والبديهة، الذي لا يقف أمامه حجاب إلا ودفعه، فترى شعره جيدا مبتكرا، وذلك عندما قسم الشعراء إلى متكلف وصاحب طبع، ومفتقر إلى الموهبة والتكلف[2].

ويبدو أن ابن بسام أعجب بالبديهة والارتجال، وأثنى على أصحابها وأكثر من الوقوف عليها[3]، إلا أنه يرى أنه بالرغم مما بلغته البديهة والارتجال من شأن في الأندلس إلا أنها لم ترتق إلى مستوى الأشعار المشرقية المرتجلة، ولا فيها كبير طائل[4]، ولم يكن هذا الإعجاب حكرا على الخلفاء في مجالسهم والأدباء في ندواتهم، بل شاركهم هذا الإعجاب عامة أهل الأندلس[5].

وعلى الرغم من هذا الإعجاب بالبداهة والارتجال، إلا أنه لم يكن إعجابا مطلقا، فهناك من يرى أن البداهة والارتجال أقل إجادة من الروية، ويمثل هذا الرأي ابن صاعد البغدادي، الأمر الذي دفع بعض نقاد الأدب إلى الاعتراف بجودة الشعر الملقى على الروية، وأن الارتجال يكون أدنى منه درجة في الإحسان[6].

ومرد ذلك إلى أن البديهة تبعد الشاعر عن تثقيف قصيدته وتهذيبها، لذلك كانت الروية أحسن من البديهة، إلا أن الشاعر الجيد هو من كانت بديهته مساوية للشعر المروى الجيد.

(1) ينظر: منهاج البلغاء وسراج الأدباء: حازم القرطاجني، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الكتب المشرقية، تونس، 1966: 497.
(2) ينظر: الذخيرة: ق1م1/ 203-204.
(3) ينظر: الذخيرة: ق1م1/ 261، كما ينظر: م.ن: ق4م1/ 23.
(4) ينظر: الذخيرة: ق4م1/ 36.
(5) ينظر: المعجب: 88/87.
(6) ينظر: نفح الطيب: 583/3-584، 126/4، 97/3.

ولو حللنا بعض المقطعات المروية على البديهة لوجدناها حقا لا ترقى إلى مستوى الشعر الملقى على الروية، فلو نظرنا إلى الأمير محمد عندما دخل دار أخيه عثمان، وطلب ماء، فأبطأ عليه غلامه، فقال هاجيا إياه بديهة[1]:

المَـــاءُ فِـــي دَارِ عُثْمَـــانَ لَـــهُ ثَمَـــنٌ والخُبْـزُ فِيْـهِ لَـهُ شَـأْنٌ مِـنَ الشَّـانِ

فاسْـلَحْ عَلَـى كُـلِّ عُثْمَـانٍ مَـرَرْتُ بِـهِ إلا الخَلِيْفَـــةَ عُثْمَـــانَ ابْـــنِ عَفَّـــانِ

فنلاحظ على هذه المقطوعة أنها بلغت من البساطة في الألفاظ حدّاً جعلها تقترب من النثرية، بل واقترابها من لغة الحياة اليومية، وأن الصورة التي رسمها صورة تقريرية تقوم على الخطاب المباشر مستبعداً فيها أساليب البيان.

كما لو نَظرنا إلى مقطعة مرتجلة لابن شهيد عندما طلب منه أحد أصدقائه وصف مجموعة حراشف في زنبيل بعد أن عجز صاعد عن وصفها فقال[2]:

هَـــلْ أَبْصَـــرَتْ عَيْنَـــاكَ يَـــا خَلِيلِـــي قَنَافِـــذاً تُبَـــاعُ فِـــيْ زَنبِيْـــلِ

مِـــنْ حَرْشَـــفٍ مُعْتَمَـــدٍ جَلِيـــلِ ذِي إِبَـــرٍ تَنْفُـــذُ جِلْـــدَ الفِيـــلِ

كَأَنَّهَـــا أَنْيَـــابُ بِنْـــتِ الغُـــوْلِ لَـــوْ نُخِسَـــتْ فِـــي أُسْـــتِ امـــرئٍ ثَقِيْـــلِ

فلو أنعمنا النظر في هذه المقطعة نجد أن أبا عامر من خلال وصفه لهذا الحيوان، لم يرتق إلى المستوى المطلوب، لذا جاءت معانيه أقرب إلى الهزل والطرافة، منها إلى الجد والصرامة. وألفاظه تكاد أن تكون عامية مستهجنة، إذ بدا في هذه المقطعة التكلف واضحا وجليا، وأن صورته كانت حسية مرئية ليس فيها كبير طائل فهي تقريرية، لا تلحظ للبيان فيها أثراً، عدا تشبيه يكاد يكون باهتا، لأن التشبيه في أحد معانيه هو الخروج من الغموض إلى الوضوح[3]، إلا أننا نراه هاهنا ينقلنا من الوضوح إلى الغموض عندما شبه إبر القنفذ المعروفة بأنياب الغول غير المعروفة أصلا.

ب. المراجعات والمجاوبات:

(1) الحلة السيراء: 127/1.
(2) ديوان ابن شهيد: 136.
(3) ينظر: قضايا أندلسية: بدير متولي حميد، دار المعرفة، القاهرة، ط1، 1964: 113، وينظر: معجم النقد العربي القديم، ج2: 276-280.

المراجعة: مقطعة شعرية يكتبها الشاعر في مناسبة خاصة تدعو إليها، ثم يرسلها برقعة إلى شخص معين تربطه به صلة قربى، أو علاقة صداقة وود، وما إلى ذلك من روابط اجتماعية وإنسانية.

أما **المجاوبة:** فهي أبيات تأتي على نفس وزن المراجعة، وعلى قافيتها في الغالب، ينظمها الشخص المرسل إليه، ويدفع بها إلى صاحب المراجعة لتكون ردا أو جوابا على أبياته، ولهذا سميت (شعر المراجعات والمجاوبات)، وتأتي بعبارات موجزة ومعنى لطيف، وألفاظ تمتاز بالوضوح والسهولة[1].

ويمكن تقسيم المراجعات والمجاوبات من حيث ورودها إلى الأقسام الآتية:

1. المراجعات والمجاوبات الرسمية:

وقد كانت المجاوبات غالبا ما تأتي من الشعراء في مجالس الأنس التي يحضرها الخليفة، وذلك بعد أن يوجه إليهم رقعة من الشعر، فيها هذه الدعوة، فيجيبون عنها شعرا أيضا، وكانت أصول المجالس تقتضي وصول المدعو مع جواب شعري، فإن كان بدون جواب كان ذلك إحراجا لأدبه ومنزلته الشعرية، خاصة إذا كان من الشعراء المجيدين ذوي المكانة المرموقة[2].

وقد يكون الخليفة هو المجاوب، فيتقيد بتلك القيود التي يتقيد بها الشاعر المجاوب، فعندما تسلم الخلافة المستظهر بالله عبد الرحمن بن هشام سنة 414هـ، رفع إليه أحد الشعراء أبياتا مهنئاً إياه بالخلافة في رق مبثور واعتذر عن ذلك بهذين البيتين[3]:

الـــرَّقُّ مَبْثُـــورٌ وفِيْـــهِ بِشـــارَةٌ ... بِبَقَـــا الإمَـــامِ الفَاضِـــلِ المُسْـــتَظْهِرِ

مَلِـكٌ أَعَـادَ العَـيْشَ غَضَّـاً شَخْصُـهُ ... وَكَـــذَا يَكُـــونُ بِـــهِ طِـــوَالَ الأدْهُـــرِ

(1) ينظر: خزانة الأدب وغاية الأرب: ابن حجة الحموي، بيروت، لبنان، 99-100.
(2) ينظر: نفح الطيب: 616/1، 259/3-261.
(3) ينظر هذه القصة في الذخيرة: ق1م1/ 58.

فأجزل المستظهر بالله صلته، ووقع على ظهر رقعته بهذه الأبيات، مجاوبا:

قَبِلْنَـــا العُـــذْرَ مِـــنْ بُثْـــرِ الكِتَـــابِ ... لِمَـــا أَحْكَمْـــتَ مِـــنْ فَصْـــلِ الخِطَـــابِ

وَجُـــدْنَا بِـــالجِزَارِ بِمـــا لَـــدَيْنَا ... عَلَـــى قَـــدَرِ الوُجُـــودِ بِـــلا حِســـابِ

فَـــنَحْنُ المُنْعِمـــونَ إذَا قَـــدِرْنَا ... وَنَحْـــنُ الغَـــافِرونَ أَذَى الـــذِّئابِ

وَنَحْـــنُ المُطْلِعُـــونَ بِـــلا امْتِـــرَاءٍ ... شُـــمُوسَ المَجْـــدِ مِـــنْ تِلْـــكَ النُّـــوابِ

وكانت هذه المراجعات والمجاوبات تأخذ طابع الجد، فعندما سجن المصحفي في عهد المنصور بن أبي عامر وطالت محنته في السجن، أخذ يستعطف المنصور بمراجعات يبث فيها شكواه محاولا من خلالها أن يثير نخوة الملك ويستدر عطفه على كبر سنه فقال[1]:

هَبْنِـــي أَسَـــأتُ فَـــأَيْنَ الفَضْـــلُ وَالكَـــرَمُ ... إذْ قَـــادَنِي نَحْـــوَكَ الإذْعَـــانُ والنَّـــدَمُ

يَـــا خَيْـــرَ مَـــنْ مُـــدَّتْ الأَيْـــدِي إليـــهِ أَمَـــا ... تَرْثِـــي لِشَـــيخٍ نَعَـــاهُ عِنْـــدَكَ القَلَـــمُ

بَالَغتَ فِي السُّخْطِ فَاصْفَحْ صَفْحَ مُقْتَدِرٍ ... إنَّ المُلُـــوكَ إذَا مَـــا اسْـــتُرحِمُوا رَحَمُـــوا

ويظهر أن المنصور جاوبه بأبيات تنم عن غضب شديد تجاه ما أظهر له المصحفي من إساءة كان يبدو أنها سياسية، والجريمة السياسية في نظر السياسي بصفة خاصة أعظم[2]، وقد ذكره بتحريض الخليفة عليه وأجابه بقوله[3]:

ألأَنْ يَـــا جَـــاهِلاً زَلَّـــتْ بِـــكَ القَـــدَمُ ... تَبْغِـــي التَّكَـــرُّمَ لَمَّـــا فَاتَـــكَ الكَـــرَمُ

أَغْرَيْـــتَ بِـــي مَلِكَـــاً لَـــولا تَثَبُّتُـــهُ ... مَـــا جَـــازَ لِـــي عِنْـــدَه نُطْـــقٌ وَلا كَلِـــمُ

فايْأسْ مِنَ العَيْشِ إذْ قَدْ صِرْتَ فِي طَبَقٍ ... إنَّ المُلُـــوْكَ إذَا مَـــا اســـتُنقِمُوا نَقَمُـــوا

نَفْسِـــي إذَا سَـــخَطَتْ لَيْسَـــتْ بِرَاضِـــيَةٍ ... وَلَـــو تَشَـــفَّعَ فِيْـــكَ العُـــرْبُ وَالعَجَـــمُ

(1) مجلة آداب المستنصرية، ما تبقى من شعر الحاجب المصحفي، مجلة آداب المستنصرية، ع2، 1985: 196.
(2) أدب السياسة والحرب في الأندلس، من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الرابع الهجري: علي لغزيوي، مكتبة المعارف، الرباط، 1987: 178.
(3) ما تبقى من شعر الحاجب المصحفي: 196.

وبذلك يكون المنصور قد قطع عليه حبل الأمل في الخلاص، وصدمه بهذا القرار الذي لا رجعة له فيه[1]، إلا أنه وعلى الرغم من ذلك ظل يراجعه ولم يمل، وكان الأمل يدفعه إلى ذلك حتى وصل به الأمر أخيرا إلى اليأس والاستسلام[2].

2. المراجعات والمجاوبات في شؤون علمية:

مما لا شك فيه أن حياة العلماء والأدباء الشعراء شهدت الكثير من المناظرات والمجاوبات العلمية، سجل بعضها شعر المراجعات والمجاوبات الذي بلغنا إذ عكس بعض مظاهر تفكيرهم وخاصة في بيئة كثر فيها العلماء المتمرسون، وكان أبرزهم الزبيدي حامل لواء تنقية اللغة من اللحن المنطوق بأسلوب يغلب عليه التلطف، حيث يرد المخطئ إلى الصواب بأدب ولياقة وكثير من التواضع[3].

والمراجعة الآتية تبين ذلك فعندما كتب إليه الوزير المصحفي كتاباً وكان الزبيدي (ت 379هـ)، يومئذ صاحب الشرطة، وفيه كلمة (فاضت نفسه) بالضاد، فراجعه الزبيدي بمنظوم بين له الخطأ دون تصريح، فقال[4]:

قُـــلْ لِلـــوَزْيرِ السَّـــنِيِّ مَحْتِـــدُهُ ... لِـــي ذِمَّـــةٌ مِنـــكَ أَنْـــتَ حَافِظُهَـــا

عِنَايَـــةٌ بِـــالعُلُوْمِ مَفْخَـــرَةٌ ... هُـــوَ بَهْـــظُ الأَوَّلـــينَ بَاهِظُهَـــا

يفِـــر لـــي (عمرهـــا) و(معمرهـــا) ... فيهـــا و(نظامهـــا) و(جاحظهـــا)

قَـــدْ كَـــانَ حَقَّـــاً قَبُـــولُ حُرْمَتِهَـــا ... لَكِـــنَّ صـــرفَ الزَّمَـــانِ لافِظُهَـــا

وَفِـــي خُطُـــوبِ الزَّمَـــانِ لـــي عِظَـــةٌ ... لَـــوْ كَـــانَ يُثْنِـــي النُّفُـــوْسَ وَاعِظُهَـــا

إنْ لَـــمْ تُحَـــافِظْ عِصَـــابَةٌ نسـبتْ ... إلِيْـــكَ قُـــدمَاً فَمَـــنْ يُحَافِظُهَـــا

لا تَـــدَّعَنَّ حَـــاجَتي مُطرِحَـــةً ... فـــإنَّ نَفْسِـــي قَـــدْ فَـــاظَ فَائِظُهَـــا

فأجابه المصحفي معتذرا عن هذا الخطأ الذي نسبه لنفسه متعللاً بالسهو[5]:

(1) أدب السياسة والحرب في الأندلس: 178.
(2) ما تبقى من شعر الحاجب المصحفي: 177-178.
(3) ينظر: أبو بكر الزبيدي وآراؤه في النحو واللغة: نعمة رحيم العزاوي، مطبعة الآداب، النجف، 1395هـ-1975: 75.
(4) جذوة المقتبس: 46-47، المحدون من الشعراء وشعرهم: 207-208، نفح الطيب: 6/4.
(5) جذوة المقتبس: 47، المحدون من الشعراء وشعرهم: 208، نفح الطيب: 6/4.

خَفِّضْ فُوَاقَاً فأنْتَ أوْحَدُهَا ... عِلْمَاً وَنَقَّابِهَا وَحَافِظُهَا

كَيْفَ تَضْيعُ العُلُومُ فِي بَلَدٍ ... أبْنَاؤُهُ كُلُّهُمْ يُحَافِظُهَا

ألفَاظُهُمْ كُلُّهَا مُعَطَّلَةٌ ... مَا لَمْ يُعَوّل عَلَيْكَ لافِظُهَا

مَنْ ذَا يُسَاويكَ إنْ نَطَقْتَ وَقَد ... أقَرَّ بِالعَجْزِ عَنْكَ جَاحِظُهَا

وَقَد أتَتْنِي فُدِيْتَ شَاغِلَةٌ للنَّـ ... ـفْسِ أنْ قُلْتُ (فَاظ فائِضُهَا)

فَأوضَحتَهَا تَفُزْ بِنَادِرَةٍ ... قَدْ بَهَظَ الأوَّلِينَ بَاهِظُهَا

فأجابه الزبيدي وضمن مجاوبته الشاهد على ذلك[1]:

أتَانِي كِتَابٌ مِنْ كَرِيْمٍ مُكَرَّمٍ ... فَنَفَّسَ عَنْ نَفْسٍ تَكَادُ تَغِيظُ

فَسَرَّ جَمِيعَ الأولِيَاءِ وُرُودُهُ ... وَسِيءَ رِجَالٌ آخرونَ وغيظوا

لَقَدْ حَفِظَ العَهْدَ الذي قَدْ أَضَاعَهُ ... لَدَيَّ سِواهُ وَالكَرِيْمُ حَفِيظُ

وَبَحَثْتُ عَنْ فَاظَتْ وَقَلْبِي قَالَهَا ... رِجَالٌ لَدَيْهِم فِي العُلُومِ حُظُوظُ

رَوَى ذَاكَ عَنْ (كيبانَ) (سهلٌ) وأَنْشَدوا ... مَقَالَ أبِي العِيَاظِ وَهُوَ مُفيظُ

وسميت غياظا ولستَ بغائظٍ ... عَدُوَّاً ولكن للصَّديقِ تغيظُ

فلا حَفِظَ الرَّحمنُ روحَكَ حَيَّةً ... ولا وَهْنَ فِي الأرواحِ حينَ تفِيظُ

ونلاحظ في هذه المقطوعة تأثر الزبيدي بالصناعة اللفظية، إذ يحتج لرأيه ويورد الدليل عليه بما حفظه من الأقوال والشواهد.

ومن المراجعات التي دارت في شؤون علمية مراجعات القاضي منذر بن سعيد البلوطي، مع محمد بن الحسين، أحد أعضاء اللجنة التي شكلها المستنصر برئاسة القالي،

(1) جذوة المقتبس: 47-48، المحمدون من الشعراء وشعرهم: 208، نفح الطيب: 4/6-7.

للفصل في نسخة البلوطي لكتاب العين للفراهيدي، ومعارضتها مع النسخ الأخرى[1]، إذ تدل هذه القصة على نقاش علمي كان يدور حول كتاب (العين) في هذه الحقبة الزمنية.

وقد يكون شعر المراجعات والمجاوبات لدى العلماء والشعراء لوناً من الترف، إذ يأخذ طابع التسلية والفكاهة بالإضافة إلى النكهة العلمية التي تتركها هذه المراجعات، فنرى الوزير محمد بن عبد الواحد الدارمي يقول[2]:

يَـــزْرَعُ وَرْدَاً نَـــاظِرَاً نَـــاظِري ... فِـــي وَجْنَـــةٍ كَـــالقَمَرِ السَّـــاطِعِ

أُمْنَـــعُ أنْ أقْطِـــفَ أزْهَـــارَهُ ... فِـــي سُـــنَّةِ المَتْبُـــوعِ وَالتَّـــابِعِ

فلِـــمْ مَنَعـــتُمْ شَـــفَتَي قَطْفَهَـــا ... وَالحُكْـــمُ أنَّ الـــزَّرْعَ للـــزَارِعِ

وقد أجاب عنها بعض المغاربة بقوله:

سَـــلَّمْتُ أنَّ الحُكْـــمَ مَـــا قُلْـــتُمُ ... وَهُـــوَ الـــذي نَـــصَّ عَـــنِ الشَّـــارِعِ

فَكَيْـــفَ تُبْقِـــي شَـــفَةٌ قَطفـــه ... وغيرُهَـــا المـــدعُوَّ بـــالزَّارِعِ

وقد أجابه الإمام التنسي ثم التلمساني بقوله:

فـــي ذَا الَّـــذِيْ قَـــدْ قُلْـــتُمُ مَبْحَـــثٌ ... إذْ فِيْـــهِ إيْهَـــامٌ عَلَـــى السَّـــامِعِ

سَـــلَّمْتُم وَالحُكْـــمُ لَـــهُ مُطْلَقَـــاً ... وَغيـــرُ ذَا نَـــصَّ عَلَـــى الشَّـــارِعِ

يعني أنه يلزم على قول المجيب أن يباح النظر مطلقا، والشرع خلافه، وأجاب بعض الحنفية بقوله:

لأَنَّ أهْـــلَ الحـــبِّ فـــي حُكمِنَـــا ... عَبيـــدُنَا فـــي شَـــرعِنَا الوَاسِـــعِ

والغيـــرُ لا مُلـــكَ لـــهُ عنـــدَنَا ... فحقُّـــهُ للسَّـــيِّدِ المـــانِعِ

وهناك جواب لبعض المغاربة على غير رويه وهو:

قـــلْ لأبـــيْ الفضـــلِ الـــوزيرِ الَّـــذيْ ... بـــاهَى بِـــهِ مَغربُنَـــا الشَّـــرقُ

---

(1) ينظر: المعجم العربي في الأندلس: عبد العلي الودغيري، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ط1، 1984: 142-143، وينظر: جذوة المقتبس: 51-52، بدائع البدائه: 52، وينظر: أنباه الرواة على أنباء النحاة: 71/3-72.

(2) ينظر هذه القصة في نفح الطيب: 112/3-113.

غَرســـتَ ظُلمـــا وأردتَ الجَنَـــى وَمَـــا لعـــرقٍ ظـــالمٍ حـــقُّ

ومن المراجعات التي تحمل الطابع العلمي والتي تعبر عن نفوس ميالة للضحك، ما حدث بين الزبيدي والفقيه محمد بن أحمد المعروف بابن العطار (ت 399هـ)، فقد كتب الزبيدي إلى ابن العطار في مسألة فقهية ظريفة بقوله[1]:

يـــا عليمـــاً بكـــلِّ علـــمٍ علـــيٍّ نـــاظراً فيـــهِ فـــي عيـــانٍ خفـــيِّ

هـــلْ تجـــوزُ الصّـــلاةُ خلـــفَ إمـــامٍ ألكـــنَ أو تجـــوزُ خلـــفَ خصـــيِّ

فأجابه ابن العطار قائلا:

لا تجـــوزُ الصّـــلاةُ خلـــفَ إمـــامٍ ألكـــنٍ بـــالقرآنِ جـــذمٍ عيـــيِّ

ســـأل اللهَ أنْ يوفـــقَ للحـــقِّ بفعـــلٍ ومنطـــقٍ مرضـــيِّ

فمع علمية المسألة التي تحتاج إلى الجد والرصانة، يظهر الميل غير المتكلف بها الدعابة عند السائل والمجيب، مما يثير النفس ويدفعها إلى الضحك.

3. مراجعات وأجوبة التهادي والاستهداء:

شكل هذا اللون جزءاً مهما من هذا النمط المهم في شعر المقطعات، في الأدب الأندلسي لهذه الحقبة، وذلك لكون الهدية رمزا من رموز المحبة وأداة مهمة في توثيق عرى الصداقة، وقد تكون هذه الكثرة بسبب شيوع مجالس اللهو والمجون، وتوافر الحرية الاجتماعية. إذ أنهم راحوا بسبب تلك العوامل يرفقون مع الهدية المرسلة رسالة شعرية يتخذون منها وسيلة لتقوية العلاقات الاجتماعية، وقد تمركزت تلك الهدايا على محاور أساسية ثلاثة وهي:

(1) ترتيب المدارك: 656/4، كما يراجع أمثلة أخرى لمراجعات في شؤون علمية في نفح الطيب: 22/2، وجذوة المقتبس: 272.

أ. إهداء الخمر:

لقد لاحظت هذه الدراسة أن التهادي بالخمرة كان من الموضوعات التي ظفرت من شعراء الأندلس بقسط وافر من الحديث، وذلك بفعل البيئة الاجتماعية، حيث شيوع مجالس الخمر والمجون التي دفعتهم إلى الانغماس في ملذاتها.

فنجد الشاعر عبد الله بن السراج يكتب إلى صديق له وقد استهداه خمرا[1]:

بقينا بلا كأسٍ سوى شغفِ شربةٍ ... يميتُ سرورَ الشّارِبِ المتزنّمِ

فمُنَّ بكأسٍ يا فتى الفتكِ والّذي ... مضى لِي زمانٌ وهو فيهِ معلّمِي

ويقينا أن الهدايا كانت متبادلة، ولا يلذ الشاعر بشرب الخمرة إلا من يد صديقه الذي عوده على هذه الهدايا، فنرى أبا علي بن الغليظ صاحب عبد الله بن السراج يكتب له وقد قدم من سفره[2]:

يا مَنْ أقلّبُ طرفي في محاسِنِهِ ... فلا أرَى مِثلَهُ في النَّاسِ إنْسَانَا

لَوْ كنتَ تعلمُ مَا لقيتُ بعدَكَ مَا ... شربتَ كأساً ولا استحسنتَ ريحانا

فجاوبه بقوله[3]:

يا من إذا ما سقتني الراحُ راحتُهُ ... أهدتْ إليَّ بها رَوحَاً ورَيْحانا

مَنْ لم يكنْ في صباحِ السّبتِ يأخُذُهَا ... فليسَ عندي بِحُكمِ الظرف إنْسَانا

فكنْ على حُسْنِ هذا اليومَ مصطَبِحَاً ... مذكِّرَاً حسناً منه وإحسانا

وفي البساتينِ إن ضاقَ المحلُّ بِنَا ... مندوحةً لا عدمْنَا الدَّهرَ بُستانا

ولقد بلغ من شدة ولعهم بها، أن راحوا ينظرون إليها على أنها علاج محمود لبعض الأمراض، من ذلك يروى أنه كان لأبي عامر بن الفرح ابن مكبود، صعب علاجه، فدل على خمرة قديمة كانت عند فتى وسيم فكتب إليه يستهديه مراجعة بقوله[4]:

(1) الذخيرة: ق1م1/ 874، وينظر: مقطعة أخرى في الحلة السيراء: 179/2.
(2) نفح الطيب: 399/3.
(3) نفح الطيب: 399/3-400.
(4) مطمح الأنفس: 188، الذخيرة: ق3م1/ 104، كما ينظر: نفح الطيب: 542/3.

أرســـــلْ بِهـــــا مثـــــل وُدّكْ أرقَّ مـــــن مـــــاءِ وجهِـــــكْ

شـــــقيقة الـــــنَّفسِ فانضـــــحْ بِهـــــا جَـــــوى ابنـــــي وعبـــــدِكْ

والسبب في ذلك أنهم راحوا يعشقون القديم منها، لأنها مثل هذا قد يرققها ويزيد من لطافتها ولذتها.

ب. إهداء الورود:

وإن إهداء الورود يعد من التقاليد الاجتماعية الحضارية التي ميزت الأدب الأندلسي، لما منحته الطبيعة الأندلسية الجميلة لأهلها من كثرة الأزهار والنوار على اختلاف ألوانها وأشذائها[1]، إذ كان الأصدقاء والأحباء يتهادون الورود فيما بينهم، لتكون رسلا للود والمحبة، فمن هذه المراجعات مراجعة سعيد بن فرج الجياني، عندما أهدى ياسمينا أبيض وأصفر إلى العالم الشاعر الأمير عبد الله بن عبد الرحمن الناصر المعروف بإحسانه للشعراء[2]، وكتب معه[3]:

مـــولايَ قـــدْ أرســـلتُ نحـــوكَ تحفـــةً بمـــــرادِ مَـــــا أبغيـــــهِ منْـــــكَ تـــــذكرُ

مـــــن ياســـــمينٍ كـــــاللجينِ تبرجـــــتْ بيضـــــاً وصـــــفراً والسَّـــــماح يعَبِّـــــرُ

فعوضه عنها ملء طبقها دنانير ودراهم، وكتب له:

أتـــــاكَ تفســـــيري ولمّـــــا يَجِـــــل عنّـــــي عَلَـــــى أَضْـــــغاثِ أحـــــلامِ

فاجعلْـــــهُ رسْـــــمَاً دائمـــــاً زائـــــراً منـــــكَ ومنّـــــي غـــــرّةَ العـــــامِ

فأجابه سعيد بن فرج بقوله:

قـــدْ ســـمعْنَا بجـــودِ كعـــبٍ وحـــاتمٍ مَـــا ســـمعنَا جـــوداً مـــع العمـــر لازمْ

فـــدُعائي بـــأنْ تـــدومَ دعـــاء لـــي لا زال طـــولَ مـــا عشْـــتَ دائـــمْ

(1) ينظر: تاريخ النوريات في الشعر العربي في المشرق وفي الأندلس: مقداد رحيم خضر، مجلة آداب المستنصرية، ع11، 1405هـ-1985: 200.

(2) ينظر: المغرب: 188/1، وينظر: الحلة السيراء: 206/1.

(3) نفح الطيب: 582/3، كما ينظر نماذج أخرى في مطمح الأنفس: 214، ترتيب المدارك: 4/ 668-669، وينظر: أحمد بن فرج الجياني، نزهة جعفر حسن، مجلة المستنصرية، ع16، 1988: 223.

مـــا ســـمعنَا كمثـــلِ هـــذا اختراعـــاً هكـــــذا هكـــــذا تكـــــونُ المكـــــارمْ

والذي يهمنا من هذه المقطعة أنها عكست تقليدا اجتماعيا مترفا متحضرا وكشفت لنا نوعا مما كانوا يتهادونه فيما بينهم[1].

ج. التهادي في موضوعات أخرى:

وقد امتدت تلك المراجعات إلى التهادي في موضوعات أخرى، لتشمل على سبيل المثال استهداء الجواري، حيث يدل هذا على بعد ما وصل إليه المجتمع من الإفراط في الملذات، التي كانت تقود إليه الشهوة الجامحة، فنرى عبد الملك بن شهيد الذي كان من أخص وزراء المنصور بن أبي عامر، عندما تخلف عنه في بعض غزواته كتب يستهديه بعض الحسان، ممن سبين في تلك الغزوة، وذلك في أبيات قال فيها[2]:

أنـــا شـــيخٌ والشّـــيخُ يهـــوى الصّـــبَايَا أيَـــا نفـــسُ أقيـــكِ كـــلَّ الرَّزَايَـــا

ورســـولُ الإلـــهِ أســـهمَ بـــالفيْ ءِ لِمَـــنْ لـــم يخـــبَّ فيـــهِ المطَايَـــا

فـــاجعلنّي فُـــديتَ أشـــكرُ مقـــد مَـــكَ وابعـــثْ بهـــا عِـــذابَ الثّنَايـــا

فبعث إليه المنصور بثلاث جوار كن من أجمل السبي وكانت إحداهن ذات جمال باهر، وكتب مع ذلك قوله مجاوبا[3]:

قـــدْ بعثْنَـــا بهـــا كَشَـــمسِ النَّهـــارِ فـــي ثـــلاثٍ مـــن المهـــا أبكـــارِ

وامتحنـــا بعـــذرة البكـــرِ إنْ كنـــ ـــتَ ترمـــي بـــوادرَ الأعـــذارِ

وإن هذه المجاوبة كسابقتها تعكس الجانب اللاهي الذي كان يتمتع به الأندلسيون.

هذا وقد يمزج الشعراء بين المراجعات التي تحمل طابع الاستهزاء في الشؤون العلمية وبين معاني الغزل، كما جاء فيما كتبه منذر بن سعيد البلوطي إلى أحدهم، وقد طلب منه كتاب (الغريب المصنف)، فقال في ذلك[4]:

---

(1) بنظر: خريدة القصر وجريدة العصر: العماد الأصفهاني، ق2 المغرب والأندلس، تحقيق أذرتاش أذرتوش، الدار التونسية للنشر، 1971: 215/2.

(2) نفح الطيب: 585/1-586، وينظر في هذا المعنى نفح الطيب: 361/1.

(3) نفح الطيب: 585/1-586.

(4) نفح الطيب: 20/2.

بحـــــــقِّ رئـــــــمٍ مهفهـــــــفْ وصـــــــــــدفةِ المتعَطِّـــــــــــفْ

ابعـــــــثْ إلـــــــيَّ بجـــــــزءٍ مـــــــن الغريـــــــبِ المصـــــــنَّفْ

وكان هذا قد أرسل الكتاب وكتب معه قوله مجاوبا إياه:

وحـــــــــقّ وردٍ موَلَّـــــــــفْ بفيـــــــــك أي تـــــــــالُّفْ

لأبعـــــــــثنَّ بمـــــــــا قـــــــــدْ حـــــــوى الغريـــــــبُ المصـــــــنَّفْ

ولـــــــو بعثـــــــتُ بنفســـــــي إليـــــك مـــــا كنـــــت أُســـــرفْ

وبهذا نستطيع أن نقرر بأن الأندلسيين لم يتركوا شيئا إلا وقد تهادوا فيه، وكانت لهم فيه مقطعات شعرية، جاءت على نمط المراجعات والمجاوبات، فإلى جانب ما ذكرناه فإنهم تبادلوا الهدايا في أمور أخرى، منها على سبيل المثال الأقلام والأوراق والعطور[1]. ومن المناسب أن نذكر هنا مراجعة أبي بكر بن بقي حين استهدى من بعض إخوانه أقلاما، فبعث إليه بثلاث من القصب وكتب معها[2]:

خُـذها إليـكَ أبـا بكـر العـلا قصَـبَا كأنَّمَـا صـاغها الصـوّاغُ مـن ورقـهْ

تزهى بها الطرسُ حسناً ما نثرتَ بها مسك المدادِ على الكافورِ من ورقهْ

فأجابه أبو بكر:

أرسـلت نجـوى ثلاثـا مـن قَنَـا سـلبٍ ميـادةً تطعـنُ القرطـاسَ فـي ورقـهْ

فـالخطّ ينكرُهـا والخـطّ يعرفُهـا والـرِّقُّ يخـدمها بـالرقّ فـي عنقـهْ

4. مراجعات في الدعوة إلى المجالس:

إن شعر المراجعات والمجاوبات وجد في المجالس الأندلسية مجالا رحبا، يمتد من خلالها خيال الشاعر، لكثرة تلك المجالس وجمالها، ولقد امتاز الأندلسيون بهذا اللون من

(1) ينظر: ديوان ابن عبد ربه: 16، البديع في وصف الربيع: 87-88، الكتيبة الكامنة في من لقيناه في الأندلس من شعراء المائة الثامنة: لسان الدين بن الخطيب، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت، 1963: 124.

(2) ينظر: ابن بقي القرطبي، حياته وشعره: جمع وتحقيق محمد مجيد السعيد، مجلة المورد، م7، ع1، 1978، م.ن: 137.

الشعر، حيث فاقوا المشارقة، وذلك لكثرة المدن العامرة والحياة التي تغمرها السعادة والترف في أحضان الطبيعة الجميلة الزاهية[1].

وإن شيوع تلك المجالس والدعوة إليها كان نوعا من النشاط الاجتماعي الذي يتدارسون فيه الأدب والسياسة أحيانا بالإضافة إلى الترفيه عن النفس والترويح بالملذات[2].

فنرى دعوة أبي علي لصديقه ابن السراج لمجلس أنس يتعاطون فيه الخمرة لحضوره بقوله[3]:

يا خليلاً صفَا وكَدَّرَ يوميْ ... هلْ إلى الطيب في غدٍ من سبيلِ

لو تراني أسارقُ اللّحظ حلّي ... واسقِنِي من ريقِكَ المعسولِ

لتمنيت أن ترى (أحسنَ الور ... دِ) يغنيكَ بالغناءِ الثّقيلِ

يا خليلاً مثاله نصبَ عيني ... لو خلونا إذن شفيتُ غليلي

فألفاه رسوله سكرانا، فكتب إليه مجاوبا[4]:

يا صديقي شغلتُ عنكَ بخطبٍ ... لم يكنْ لي بتركهِ من سبيلِ

وغداً نلتقي عليها سلافاً ... مزّة في حرارةِ الزّنجبيلِ

أثقَلتني هوى بقدٍّ خفيفٍ ... حسن الوردِ فوق ردفٍ ثقيلِ

سلبتْ صبري الجميلَ وقلبي ... بجفون نجلٍ ووجهٍ جميلِ

كحّلتْ بالسّهاد والدّمعِ طرفي ... يومَ أبصرتُها بطرفٍ كحيلِ

هي سُؤلي من الملاحِ كما أنسـ ... ـت من سادة الأخلاء سولي

لا عدتني زيارةٌ منكِ تُذكى ... نورَ عيني سناً وتشفي غليلي

---

(1) ينظر: قضايا أندلسية: 92، وينظر: م.ن: 96.

(2) البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر، عصر ملوك الطوائف: أسعد إسماعيل شلبي، دار النهضة للطباعة والنشر، الفجالة، القاهرة، مصر: 430.

(3) الذخيرة: ق1م2/ 871.

(4) الذخيرة: ق1م2/ 871.

وما يميز هذا اللون من هذا النمط هو الدخول المباشر إلى الموضوع، وعدم الإطالة في توجيه الدعوة، وتكون الإجابة أيضا بمقطوعات مشابهة فهي دعوات غالبا ما تكون منصبة على شرب الخمرة، التي يراها هؤلاء أنها تسر العقول، وتبعد الهموم وتسلي النفوس، ولهذا فليس من السهولة تركها والانشغال بسواها، وهذا ما أكده أبو جعفر بن عائش في مراجعة بعث بها إلى أحد ندمائه قال في أولها[1]:

إذا رأيتَ الجوَّ يصحو فلا ... تصحُ سقاكَ اللهُ من سكر

تعالَ فانظرْ لدموعِ النّدى ... ما فعلتْ في مبسمِ الزّهر

ولا تقلْ إنك في شاغلٍ ... فليسَ هذا آخر الدّهر

فنلاحظ على هذه المقطعة أن الشاعر وظف قسما من مفردات الطبيعة، ولا ضير في ذلك فهي التي حفّزت خيالهم الخصب حيث عشق الشاعر الخمرة في أحضانها[2]. وقد تلقى ابن عائش من نديمه هذا ردا جوابيا يتضمن قبول هذه الدعوة جاء فيها قوله[3]:

لبيكَ لبيك ولو أنَّني ... أسعى على الرَّأسِ إلى مصر

أنا الذي بشُربِها دائماً ... ما حضرتُ في الصّحو والقَطر

وليس ثقلي أبداً بعدها ... إلا الذي تعهّد في شُكري

ولم تقتصر المجالس الأندلسية والدعوة فيها على الجانب اللاهي، بل كانت هناك مجالس مخصصة للعلم والتعلم، فنرى أبا محمد عبد الله الأعمى وكان عالما في زمن الحكم المستنصر، وكان له مجلس يلقي فيه محاضراته، فيروى أن أحد طلابه فاته مجلس من المجالس العلمية، فكتب إليه راغبا في أن يعيد ما فاته، فأجابه بقطعة قال في أولها[4]:

لا تأسفنَّ أبا العاصي لفائتةٍ ... فكلّ ما ليسَ من رزقِ الفتى فاتَا

كمْ من فتى وصلَ الأسفارَ مجتهداً ... من أرضِ داريـنَ حتى حلّ أغماتا

(1) نفح الطيب: 421/3.
(2) ينظر: في الأدب الأندلسي: جودت الركابي، دار المعارف، مصر، ط2، 1966: 133.
(3) نفح الطيب: 421/3.
(4) ينظر: بغية الملتمس: 458/2.

والذي يهمنا حقيقة من هذه المراجعات والمجاوبات هو تسليط الضوء على هذا النمط الذي أخذ حيزا كبيرا من المقطعات في الشعر الأندلسي إذ يعكس صورا عديدة لها دلالاتها الاجتماعية والنفسية والأدبية. فجاءت معبرة عن مواقف الجد كما نلمس صدى الفكاهة في مواقف الدعابة والمرح، ولم تكن هذه الفكاهة موقوفة على أناس بأعينهم بل شاعت في مختلف الأوساط الاجتماعية الأندلسية، إذ أدركوا أن الضحك من مظاهر الفرح والسرور وأنه وسيلة ترويح عن النفس[1].

ج. المعارضات:

هو نمط شائع في الشعر العربي، والمعارضة تعني أن ينظم الشاعر قصيدة أو مقطوعة على وزن وقافية، وفي موضوع قصيدة أخرى، مع احتفاظ كل شاعر بأسلوبه وصوره الشعرية الخاصة، ويبقى مشتركا مع المعارض في المعنى العام[2].

وقد لا يخلو شعر شاعر أندلسي من هذا النمط، حتى أن بعضهم سلك هذا المنهج على الرغم من تغيير القافية في بعض الأحيان[3].

ولم يقتصر شعراء الأندلس على معارضة أهل بلدهم، بل توسعوا في ذلك حتى عارضوا شعراء المشارقة الكبار، كامرئ القيس وأبي نؤاس وأبي تمام والمتنبي وأبي العتاهية والبحتري، حتى امتدت المعارضات إلى القطع المغناة المستحسنة الألحان[4].

بل إن بعض الأمراء أعجبهم شعر الخلفاء المشرقيين وعارضه، فنرى الأمير سليمان بن الحكم المستعين إذ كان ممن بدت له في الأدب غاية أو ممن له في الشعر راية مشى تحتها كثير من الشعراء والكتاب[5]، يعارض أبياتا غزلية منسوبة لهارون الرشيد، ومنها قوله[6]:

ملك الثلاث الآنسات عنان ونزلنَ من قلبي بكلّ مكانِ

---

(1) ينظر: أدب الفكاهة الأندلسي: د. حسين خريوش، مطابع جامعة اليرموك، الأردن، د. ت: 6.

(2) ينظر: البديع في نقد الشعر: أسامة بن مرشد بن علي بن منقذ، تحقيق وتقديم علي مهنا، دار الكتاب العلمية، بيروت، لبنان: 221، وينظر: تيسير العروض: 248، وينظر قصيدة المديح النبوي في الشعر الأندلسي: صديق بتال حوران، رسالة ماجستير على الآلة الطابعة، جامعة الأنبار، كلية التربية، 1997: 70.

(3) ينظر: نفح الطيب: 326/7-328.

(4) ينظر: النقد الأدبي في كتاب نفح الطيب: 254.

(5) ينظر: الذخيرة: ق1ج1/ 46-47.

(6) الأغاني: أبو فرج الأصبهاني (ت 356هـ)، شرحه الأستاذ علي مهنا، دار الفكر، ط1، 1986: 269/6.

مـــا لـــي تطـــاوعني البريَّـــةُ كلُّهـــا وأطـــيعهُنَّ وهـــنَّ فـــي عصـــياني

مـــــا ذاك إلا أنَّ ســـــلطانَ الهـــــوى وبـــهِ قـــوينَ أعـــزّ مـــن ســـلطاني

أما أبيات المستعين فهي[1]:

عجبـــاً يهـــابُ الليـــثُ حـــدَّ ســـناني وأهـــابُ لحـــظَ فـــواترِ الأجفـــانِ

وأقـــــارعُ الأهـــــوالَ لا متهيبـــــاً منهـــا ســـوى الإعـــراضِ والهجـــرانِ

وتملكـــتْ نفســـي ثـــلاثٌ كالـــدّمى زهـــرُ الوجـــوهِ نـــواعمَ الأبـــدانِ

حتى أنه لشدة ولع الشعراء الأندلسيين بشعراء المشرق أن تمادى النقاد في إصدار أحكامهم على الشعر الأندلسي، فنرى ابن بسام في مقدمة ذخيرته يقول: ((إن أهل الأندلس أبو إلا متابعة أهل المشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب، لجثوا على هذا صنما وتلوا في ذلك كتابا محكما))[2].

ويذكر الدكتور بدير في كلامه عن شعر القرن الرابع في الأندلس قوله: ((استطاع الأندلسيون في القرن الرابع إذن أن يحاكوا المشارقة، وأن يسيروا بحذائهم، ويأخذوا بحورهم وقوافيهم وينظموا فيها))[3].

حتى أن البعض يرى أن الشعر الأندلسي منذ بدء عصر الأمويين حتى أوائل القرن الخامس الهجري، يمثل شعر التقليد لأدب المشرق، كما نرى في شعر ابن عبد ربه وابن هانئ وابن شهيد الأندلسيين، وابن دراج القسطلي وغيرهم من شعراء الطور الأول[4].

إلا أن هناك من حاول أن ينصف الشعراء الأندلسيين، فنرى الحميدي صاحب كتاب جذوة المقتبس يؤكد ثقة أهل الأندلس وكفاءتهم في معارضة أهل المشرق بشعر منظوم على البديهة[5].

---

(1) الذخيرة: ق1م1/ 47.
(2) الذخيرة: ق1م1/ المقدمة.
(3) قضايا أندلسية: 60.
(4) ينظر: النفح: 653/3.
(5) ينظر: في الشعر الأندلسي: جودت الركابي: 16.

والحقيقة أن هذا التقليد الذي تعد المعارضات لونا من ألوانه قد لا يعد أمرا خطيرا، فهو للفخر والتنافس مع شعراء المشرق، في محاولة منهم لإثبات ذاتهم، وإبراز مقدرتهم على مجاراة أهل المشرق، وخاصة أن شعراء الأندلس ساروا بين الشخصية والتقليد وبين الإبداع والاتباع.

وأن أبرز من حمل لواء المعارضات من شعراء هذا الجيل هو الشاعر أحمد بن عبد ربه[1]، الذي تعرض لهجمات النقاد، أسوة بشعراء ذلك الوقت، لاسيما قول المرحوم الأستاذ أحمد أمين في ابن عبد ربه ((أنه يسير في ركاب المشارقة، ويجتهد ما استطاع أن يأخذ من معانيهم ويزيد عليها، ويختار في كل نوع من الشعر إماما من المشارقة، فطورا إمامه صريع الغواني، وطورا أبو العتاهية وغيرهم، فلم يتحرر تحررا كافيا ولم يصغ إلى قلبه فقط))[2].

والمتتبع لشعر ابن عبد ربه لا يمكن أن يطمئن لهذا الرأي، وخاصة أن شعره امتاز بسلاسته ووضوحه.

والحقيقة أن أحمد هيكل هو خير من أنصف هذا الرجل، بقوله: ((إن ابن عبد ربه لم يكن يسير في ركاب المشارقة، وإنما كان يعارضهم ويهدف إلى التفوق عليهم، وإثبات ذاته))[3]، إذ كان الأندلسيون يحاولون دائما تأكيد ذواتهم الأندلسية وإثبات عدم تخلفهم عن المشارقة، فهو لم يأخذ معاني المشارقة دائما، كان يحاول أن يثبت قدرته على الإتيان بمثلها، أو بأحسن منها.

ففي قصيدته التي عارض فيها قصيدة لمسلم بن الوليد التي مطلعها: (أديرا علي الراح لا تشربا قبلي) سرعان ما يصدر حكما بحقها وحق نفسه بقوله ((فمن نظر في سهولة هذا الشعر على بديع معناه ورقة طبعه، لم يفضل شعر مسلم عليه إلا بفضل التقدم))[4].

والملاحظ أن ابن عبد ربه قد وفق في معارضته لصريع الغواني، على تأثره به من ناحية الوزن والقافية وربط الألفاظ بالمعاني، والاستعانة بالبديع على الرغم من أنه لم ينظم تلك المعارضة على إثر حادثة خاصة مع حسناء، ولا عاش تجربة حب حقيقية معها، ويبدو

(1) ينظر: في الأدب الأندلسي: الدكتور جودت الركابي، دار المعارف، مصر، ط2، 1966: 88.
(2) ظهر الإسلام: الأستاذ احمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت، ط5، 1969: 124/3.
(3) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة: 229.
(4) العقد الفريد: ابن عبد ربه، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1940: 137/3-138.

أن لشدة ولع ابن عبد ربه بهذا النمط أخذ يعارض شعره بمقطعات شعرية تسمى (الممحصات)، وهي أشعار زهدية قالها بعد توبته في الشطر الأخير من حياته، عارض بها أشعارا غزلية قالها أيام لهوه، وكانت تلك المقطعات قد محصت ما كان من أشعاره الأولى، ومن أمثلة تلك الممحصات هذه المقطعة التي عارض فيها مقطعة غزلية، حيث قال[1]:

يا عاجزاً ليسَ يعفو حين يقتدرُ ... ولا يقضي له من عيشهِ وطرُ

عاينْ بقلبكَ إنَّ العينَ غافلةٌ ... عن الحقيقةِ واعلمْ أنَّها سقرُ

سوداءُ تزفرُ عن غيظٍ إذا سعرتْ ... للظالمينَ فلا تبقيْ ولا تذرُ

إن الذينَ اشتروا دنيا بآخرةٍ ... وشقوة بنعيمٍ ساءَ ما تجروا

يا من تلهّى وشيبُ الرأسِ يندبهُ ... ماذا الذي بعدَ شيبِ الرأسِ تنتظرُ

لو لم يكنْ لك غير الموتِ موعظةً ... لكان فيه عن اللذاتِ مزدجرُ

أنت المقولُ له ما قلتَ مبتدئاً ... (هلا ابتكرت لبينٍ أنتَ مبتكرُ)

فهو يشير بهذا البيت الأخير إلى قطعة له سابقة كان قد قالها أيام لهوه، بمناسبة عزم محبوبه على الرحيل، إلا أن سقوط المطر حال بين ذلك المحبوب والسفر، ومنها قوله[2]:

هلا ابتكرت لبينٍ أنت مبتكرُ ... هيهات يأبى عليكَ اللهُ والقدرُ

ما زلتُ أبكي حذارَ البينِ ملتهفاً ... حتى رثى لي فيكَ الريحُ والمطرُ

يا بردهُ من حيا مزنٍ على كبدٍ ... نيرانُها بغليلِ الشّوقِ تستعِرُ

آليتُ ألا أرى شمساً ولا قمراً ... حتى أراك فأنت الشمسُ والقمرُ

والملاحظ على هذه المقطعات أن أغلبها جاء متكلفا حيث يلزم الشاعر نفسه بتلك المقطعة المعارضة فتكون على نفس الوزن، بل وعلى القافية نفسها، أما المعنى فيكون مغايرا كما آلت إليه المعارضات لأنه عكس المعنى الأول تماما.

(1) ديوان ابن عبد ربه: 71.
(2) ديوانه: 70.

أما في الحقبة التي أعقبت الخلافة، وتحديدا مدة الحجابة والفتنة، فيبدو أن الحال بقي كما هو من حيث تقليدهم للشعر المشرقي، وأن ابن شهيد كان خير نموذج لشعراء هذه الحقبة الزمنية في الأندلس، فقد جسد هذا النمط في مقطعاته الشعرية، ولاسيما في رسالته الموسومة بـ(التوابع والزوابع)، التي تضمنت عددا كبيرا من المعارضات الشعرية التي عارض بها توابع الشعراء المشرقيين على مختلف عصورهم، وحاول من خلالها إثبات مقدرته الأدبية في مجاراة شعراء المشرق ومعارضتهم. إذ أنه اتصل بتوابع الشعراء من الفحول المعروفين في الجاهلية والإسلام، إذ اتصل بتوابع امرئ القيس وطرفة وقيس بن الخطيم في الجاهلية، وأبي تمام والبحتري وأبي نؤاس والمتنبي من الإسلاميين وخاصة في العصر العباسي.

إلا أنه كما يرى أحمد هيكل ((تناول القديم بطريقة جديدة، تلائم العصر والبيئة ومظاهر الحضارة))[1]، كما أن غرسيه غومس رصد هذا التحديث من شعر أبي عامر في كتابه (الشعر الأندلسي)، حيث قال عنه: ((تتراءى لنا في شعره بين الفينة والفينة لمحات ذات وقع حديث))[2].

وهذا واضح في شعر ابن عامر، فهو لا يترك المعاني التي يقلد فيها كما هي، وإنما يحاول أن يجدد صياغتها فيصبها في قوالب المجاز والاستعارة والتشبيه، مما يجعلها وكأنها جديدة مبتكرة، ولو تأملنا كثيرا من معارضاته لوجدنا ذلك المعنى في أسلوب جديد، وثوب مقبول، ومن ذلك معارضته لقصيدة البحتري البائية، ومعارضته لامرئ القيس، وقيس بن الخطيم.

والملاحظ على أغلب معارضاته أنها جاءت على شكل قصائد، إلا أننا لا نعدم وجود المقطعات في معارضاته الشعرية، كما في معارضته لامرئ القيس كما نقله عنه ابن بسام، بأنه عارض معنى لامرئ القيس وأجاد فيه في حين أن عمر بن أبي ربيعة حاول أخذ المعنى ومعارضته إلا أنه لم يفلح أن يخرجه بالثوب الذي يناسبه[3].

أما معنى امرئ القيس فهو قوله[4]:

---

(1) الأدب الأندلسي، من الفتح إلى سقوط الخلافة: 398-403.
(2) الشعر الأندلسي بحث في تطوره وخصائصه: 39.
(3) ينظر: الذخيرة: ق1م1/ 287.
(4) ديوان امرئ القيس: 138-146.

سـموتُ إليهـا بعـدما نـامَ أهلُهَـا سـموَ حبـابِ المـاء حـالاً علـى حـالِ

وأما قول أبي عامر فهو[1]:

ولمـا تمـلأ مـنْ سـكرِهِ فنـامَ ونامَـتْ عيـونُ العَسَـسْ

دنـوتُ إليـهِ علـى بعـدِهِ دنـوَّ رفيـقٍ درَى مَـا الـتمَسْ

أدبّ إليـهِ دبيـبَ الكَـرَى وأسـمو إليـهِ سـموَّ الـنَّفسْ

وهذه الأبيات يذكرها أبو عامر بمعارضته لامرئ القيس وهو يقرر قاعدة في حسن الأخذ عن الشعراء[2]، والذي يبدو واضحا في أواخر العصر الأموي ظهور المعارضات التي تحمل طابع التحدي والتطاول على الشعر المشرقي، والإعجاب والتباهي بالشعر الأندلسي، فصنع ابن سعيد في كتابه (المرقصات والمطربات) يوحي بهذا الاعتزاز وحكاية المنصور بن أبي عامر مع ابن دراج القسطلي تشير إلى ثقة هذا الشاعر بنفسه وتطاوله على الشعر المشرقي، حين طلب منه أن يعارض قصيدة لأبي نؤاس التي مدح بها الخصيب صاحب ديوان خراج مصر، فعارضه بقصيدة طويلة فيها القوة والتدفق فحاز إعجاب المنصور وشهادة الحاضرين بتفوقه[3].

(1) ديوان ابن شهيد: 85.

(2) الذخيرة: ق1م1/ 289.

(3) ينظر: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان: اليافعي، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان، ط2، 1970: 38/30، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر: أبو منصور عبد الملك الثعالبي، شرح وتحقيق الدكتور مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1403هـ-1983: 99/2.